ذاتك و إساءات الناس

عن كتاب انطلاق الروح

للبابا شنودة الثالث

إن لم تنطلق من ذاتك يا أخى الحبيب ، من ذاتك هذه التى تعبدها من دون الله ،
و التى تكبرها و تفخمها أمام الناس ، فلن تصل أبدا الى سمو انطلاق الروح .

لعلك تحب أحيانا أن يمدحك الناس ، أود أن أسألك سوآلا : ما هو شعورك و
تصرفك عندما يسئ إليك الغير أو يظن بك الظنون ؟

ربما تفكر فى ذاتك أنك أهنت ، و ربما تفكر فى كرامتك و هيبتك و الاحترام
الواجب لك : فتغضب و تثور ، و تتأثر لذاتك ، و تدافع عن نفسك . لست أنكر عليك
هذا ، فأنا انسان فى الجسد مثلك جربت هذه المشاعر جميعا ، أو جربت بهذه
المشاعر جميعا و لكن دعنا نناقش الأمر معا ...

ماذا يفيدك الغضب ؟ ... انه يعكر دمك . و يتلف أعصابك ، و أخطر من ذلك
كله أن الغضب يفقدك سلام القلب و راحته . ألم تسمع معلمنا يعقوب الرسول يقول :
" ان غضب الانسان لا يصنع بر الله " (يع ١ : ٢٠) ، و غضبك من أجل ذاتك هو
لا شك غضب انساني كالذى يقصده معلمنا يعقوب . تقول ان هذا الغضب ينفس عنك
، و يفرج عن الثورة المكبوتة فى داخلك . و لكن لماذا تختزن فى داخلك ثورة مكبوتة
تحتاج الى تنفيس ؟ السبب فى ذلك واضح طبعا ، هو أنك تفكر كثيرا فى ذاتك ! انطلق
يا أخى الحبيب من هذه الذات و أنت تستريح .

ان أهنت فلا تفكر فى ذاتك أنك أهنت . و انما فى ذلك الذى أهانك ، انه أخوك .
و أنت كشخص روحى ممتلئ بالمحبة ، عليك أن تفكر فى هذا الأخ الذى أخطأ : ماذا
تفعل لأجله . انك لا تريد طبعا أن تنحدر نفسه الغالية الى الجحيم ، و لا تريد أن تقف
اهانته لك عقبة فى طريق خلاصه . لذلك فأنت تطلب الى الله ألا يقيم له هذه الخطية و
لا يعاقبه عليها ، ثم أنت أيضا تصلى من أجله أن يخلصه الله من الخطية ذاتها فلا
يعود الى اقترافها معك أو مع غيرك .

و عندما تفكر فى أخيك هذا الذى أهانك ، قد تفكر فى السبب الذى جعله يفعل
ذلك : ربما يكون مريضا أعصابه متلفة ، أو متعبا عقله مجهد ، أو قواه منهكة ، أو

مرهقا بمشاكل اجتماعية أو دراسية أو مالية ... فأنت تفكر فيما يمكن أن تفعله لأجله ، و هكذا قد تخطر ببالك رحلة أو نزهة لطيفة تدبرها له ، أو قد تساهم بجهد في التخفيف أو الترفيه عنه . و ان لم تستطع شيئا من هذا كله فعلى الأقل ترثي له ، و تطلب له من الله معونة خاصة .

ان الناس يا أخى الحبيب لم يخلقوا أشرارا ، لأن الله بعد ما خلق الانسان " نظر الى كل ما فعله فاذا هو حسن جدا " و أما الشر فانه يأتي الى الناس من الخارج دخيلا عليهم ...

و هذا الشخص الذى أهانك ، ربما تكون لاهانتته لك أسباب أخرى . ربما يكون قد أساء فهمك . و مثل ذلك تفاهم معه و أقنعه فى وداعة و محبة .

و لكن هناك نوعا من الناس يهين الآخرين حبا فى اهانتهم ، مستغلا تسامحهم ليتخذهم مجالا للفكاهة و التندر . مثل هذا الصنف اما أن تبتعد عنه ، و اما أن تكلمه بلهجة حاسمة حازمة مؤدبة مظهرا له خطاه ، و مانعا اياه من تكراره . و لتفعل هذا ليس على سبيل الثأر للنفس ، أو الاحتفاظ بكرامة ذاتية ، و انما حبا فى ذلك المخطئ حتى لا تترك له فرصة أخرى للخطأ ، و مجالا يسقط فيه و يهلك بذلك نفسه ...

و شتان بين توبيخك لخاطئ بغرض انتقامي ، توبيخا يجعله يثور عليك و يحتك بك ، و بين تأنيب المحبة الحازم الهادئ الذى يشعر فيه الشخص أن مؤنبه يحبه ...

هذا كله عن موقفك من جهة الشخص الذى تشعر أنه أهانك ، و لكن اسمح لى أن أدخل قليلا الى أعماق نفسك لناقش شعورك الباطن بينك و بين نفسك .

١- لماذا تحسب الكلام الذى يقوله غيرك أنه اهانة ، أو أنه شتيمة ؟ لماذا لا تكون تلك التى تحسبها اهانة هى كلمة صريحة لازمة لاصلاح نفسك ؟ و ان كنت قد تضايقت منها فذلك لأنك تحب المديح ، و تريد أن يقول فيك جميع الناس حسنا . افرح يا أخى بانتقاد الناس و تأنيبهم ، فان ذلك صالح لك ينقيك و يفيدك فى حياتك الأخرى . اذا انتقدك شخص فأولى بك أن تشكره فربما يكون صوته هو صوت الله . أقصد أن الله المحب لك ربما يكون قد أرسل هذا الانسان ليرشدك و يظهر لك خطأك حتى تتركه .

٢- ربما تكون تلك الالهانات تأديبا لك من الله على خطايا أخرى ، اقترفتها فى ماض قريب أو ماض بعيد . عندما سمع داود النبى اهانة كهذه قال فى انسحاق : "

الله قال لهذا الانسان اشتم داود " (٢ صم ١٦ : ١٠) . عندما يهينك غيرك يا أخى الحبيب تذكر خطاياك الماضية ، و اعرف أنك لست بالشخص الخالص النقاوة الذى يسمو عن التوبيخ ...

٣- فى بعض الأحيان يكون الله قد عمل عملا ناجحا عن طريقك ، فاتخذت أنت هذا النجاح سلاحا تنتفخ به ، و تحارب نفسك بالبر الذاتى ، و خشى الله عليك من السقوط عن طريق الكبرياء فسمح أن تهان ، حتى يوجد توازنا بين مشاعرك ، و يخفف شيئا من كبريائك . كثيرون من الذين يهانون متكبرون ، أما الودعاء فيرفعهم الله من المزبلة ليجلسهم مع رؤساء شعبه (مز ١١٢) ...

٤- ربما تكون قد أعثرت غيرك بتصرفك و أنت لا تدرى ، و كان هذا هو سبب اهانتك . لذلك يحسن أن تدرس وجهة نظر من أهانتك ، لعله على حق ...

٥- قد تكون هذه الاهانة درسا لك فى المحبة و الاحتمال . قال لى أحد الآباء الروحيين عن راهب اعتزل و لم يختلط بالاخوة فى المجمع " ان فترة الوجود فى المجمع لازمة للراهب . لأنه ان لم يستطع أن يحتمل مشاكسات الاخوة فى المجمع ، فكيف يستطيع أن يحتمل محاربات الشياطين فى الوحدة كما قال مار اسحق !! " .

٦- ماذا يضريك عندما يحكم عليك انسان حكما ظالما . أو عندما يظن فيك أنك مخطئ ؟ أ لعل هذا يعوقك عن ملكوت الله ، أم أن الله سيعتمد أحكام الناس ؟

٧- أم انك تحب المديح و التطويب من بشر هم تراب مذك ؟ سيدك يا صديقى " ظلم أما هو فتذلل و لم يفتح فاه " (اش ٥٣ : ٧) ، " أحصى مع أئمة " أما هو فقبل هذا الصليب ...

٨- أخيرا يا أخى الحبيب ، اذا أهنت فتضايقت ، و كبرت عليك الاهانة على الرغم من أنك خاطئ مثلى ، فتذكر كيف أننا نهين الله فيصبر علينا و يحبنا و يقبلنا اليه ! ما أعظم الهنا الحنون ، ليس له شبيهه بين الآلهة ...